جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية
كلية الآداب واللغات/ قسم اللغة والأدب العربي

اسم ولقب الأستاذ: تواتي عبد الغاني السنة الثانية (آداب): الفوج: 01
المقياس: الحداثة في الأدب العربي السنة الجامعية: 2020/2019

عنوان المحاضرة الأولى: **الحداثة عند الغرب وعند العرب**

تمهيد: انتشرت لفظة "الحداثة" (modernité) في عصرنا الحالي انتشارًا واسعًا، واحتلت رقعة واسعة من وسائل الإعلام، ومساحة واسعة في دنيا الأدب. وتشير كلمة "الحداثة" في معناها العام إلى شيء معاصر أو حديث أو يحدث اليوم؛ ويعدّ هذا المصطلح من أكثر المصطلحات إثارة للجدل، إذْ كثُر فيها الجدل، وتداخلت فيها الإيديولوجيات، وما يزال الاختلاف في تحديد مفهوم هذا المصطلح قائمًا، لاضطراب معانيه وغموضها.

وهذا المصطلح ليس حِكرًا على ميدان من الميادين المعرفية، وإنّما تسرّب وانتشر في ميادين مختلفة من فكر وعلوم إنسانية وعلوم تطبيقية، وفنون وأدب، وسياسة واقتصاد، وفكر وأخلاق وغيرها.

ومصطلح الحداثة لا يمكن تحديده وضبطه بمفهوم واحد يسير عليه كل من أراد دراسة الحداثة، ويعدّ من أشدّ الظواهر النقدية التي تعنى بالبحث والتقصّي.

1- <u>التعريف اللغوي لكلمة "الحداثة":</u> أخذت لفظة الحداثة مفهومات متعددة، وتعريفات مختلفة، فقبل الحديث عن مفاهيم الحداثة، سنحاول أولاً أن نورد بعض الدلالات المعجمية لهذا المصطلح، ثمّ نورد بعض التعريفات لعدد من الكتّاب والمفكّرين الحداثيين الغربيين والعرب باختصار ليتسنى لنا فيما بعد معرفة معانيها وأصولها.

جاء في معجم "لسان العرب" حدث: الحَدِيثُ: نقيضُ القديم. والحُدُثُ: نقيض القُدْمَة. حَدَثَ الشيء يحدُث حُدُثًا وحداثَةً، وأحدثَهُ هو، فهو مُحَدَثٌ وحديثٌ، وكذلك استحدثَهُ[1]. وجاء في الحديث النبوي: "إياكم ومُحدَثاتِ الأمور"، جمع مُحدَثة، وهي مالم يكن معروفًا في كتاب ولا سُنَّةٍ ولا إجماع. والحَدثُ: الأمر الحَادث المُنْكر الذي ليس بمُعتادٍ، ولا معروفٍ؛ أي جديد.

جاءت كلمة الحديث" في معجم تهذيب اللغة للأزهري: شابُ حَدَثٌ: فتِئ السِّن. والحديثُ: الجديدُ من الأشياء[2].

كما جاءت كلمة "الحَدَاثة" في المعجم الوسيط بمعنى: سِنّ الشَّباب. ويُقال: أخذ الأمر بحَداثته: بأوله وابتدائه. والحَدَث: الصغير السِّن. والأمر الحادث: المنكر غير المعتاد[1].

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، مادة (حدث).

[2]- أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تح: عبد السلام العرباوي، ج4، القاهرة: دس، الدار المصرية للتأليف والترجمة. مادة حدث

والملاحظ من خلال التعاريف اللغوية السابقة، معنى الحداثة لم يخرج عن معنى الجديد الذي يرمز للقوة والقدرة، والجمال والاشراق، وكل ما ابتدعه الناس من أمور لم يعرفها السّلف.

أمّا بالنسبة للكلمتين (modernité) و (modernisme) فمن الصعب التفريق بينهما بسبب الالتباس الكبير الذي وقع أثناء ترجمتها للغة للعربية، فهناك من يشير إلى أنّ الكلمة مستقاة من ظرف الزمان اللاتيني (Modo) التي تعني توًّا. ولفظة الحداثة الغربية "Modernité" مشتقة من الجذر "Mode". وهي الشكل أو ما يبتدئ به الشيء. فاللفظة العربية ترتبط إذن بما له أكثر دلالة عما يقع، إنَّه ما يحدث. فليس الشَّكل هو المُهم. ليس هو الصورة التي تبرز. فإنّ ما يحدث يتشبث أساسًا بواقعيته وراهنيته. كل ما يحدث يقع في الزمان (...) وليس كل حدث هو حداثة. لكن الحداثة لا يمكنها أن تأتي ممّا لا يحدث أبدا "[2].

جاء مفهوم "الحداثة" في قاموس لاروس العالمي الصادر عام 1874على أنها "تعني من يقوم بتقدير الأزمنة العصرية أكثر من الأزمنة الحديثة، أو إنها تشير إلى فيلسوف أو مؤرخ يُنكر الأزمنة القديمة للحضارات الصينية والهندية والمصرية بينما ينظر إلى اليونانيين على أنهم المؤسسون الحقيقيون للحضارة العامة"[3].

فيكاد يتفق الغالبية من الكتَّاب العرب على أنّ كلمة "حداثة" هي المقابل العربي لمصطلح (modernité)[4] أمّا مصطلح (modernisme) فيترجم إلى الحداثوية، العصرية، التجديد،...

وهذا المصطلح (modernisme) يحمل معنيين مختلفين في القاموس الفرنسي (le Robert quotidien) فيشير المعنى الأول إلى نوع من التذوّق لكل ما هو حديث، والتذوق هنا بمعنى القدرة على إدراك العناصر الجمالية في كلّ أثر فني. أمّا المعنى الثاني فيشير إلى حركة مسيحية دعت إلى تفسير جديد للمعتقدات والمذاهب التقليدية وذلك اعتمادا على تأويل حديث للنصوص التي تحمل معان غامضة[5]، وبالتالي فهذا المصطلح اقترن ظهوره بمجالين هما: الفن والدّين، واللاحقة (isme) تدل على مذهب او مدرسة.

أمّا المعجم الفلسفي الذي أصدره مجمع اللغة العربية في مصر، فقد ترجم مصطلح (modernisme) إلى "تجديد"، وعرّف المصطلح على أنّه " نزعة تأخذ بأساليب جديدة في نواحي الحياة الفكرية والعلمية، ومنه التجديد المتطرّف"[6].

2- <u>التعريف الاصطلاحي للحداثة</u>: إنّ مصطلح الحَداثة من أكثر المصطلحات إشكالا وغموضًا، فهو مصطلح مُتقلِّب مُراوغ، عسير التحديد، لذلك تعدّدت تعريفات الحداثة باختلاف النّقاد ومنظري الأدب، ولا يمكن

---

[1]- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ط4. مصر: 2004، مكتبة الشروق الدولية، مادة (حدث).

[2]- مطاع صفدي، نقد العقل الغربي، الحداثة وما بعد الحداثة، دط. لبنان: 1990، مركز الإنماء القومي، ص 223.

[3]- زينب عبد العزيز، هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة -الحداثة والأصولية - ط1. سوريا: 2004، دار الكتاب العربي، ص 35.

[4]- ينظر: سمير حجازي، المتقن، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية الحديثة، دط. لبنان: دس، دار الراتب الجامعية، مادة (modernité)

[5]- le Robert quotidien, dictionnaires le robert, paris: 1996 (modernisme).

[6]- مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، دط. مصر: 1983، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، مادة (تجديد).

اختصارها في مذهب مُحدَّد، أو مدرسة بعينها. لذا سنقدِّم بعض النماذج لآراء بعض الغربيين والعرب المُهتمين بالحَداثة، رغم التَّحولات في المعنى التي تَّتصل بهذا المصطلح.

أ- **<u>مفهوم الحداثة عند الغربيين</u>:** يتّفق الغربيون المهتمون بدراسة الحداثة على أسسها وأصولها وإن اختلف بعضهم حول طبيعة هذا المصطلح وتفاصيله، فهم يجمعون على أنّ الحداثة منهج تغييري ومذهب انقلابي في المفاهيم والأفكار، ويتطوّر مفهومها بتطوّر الزمن، فما كان حديثا في السنة الماضية لا يكون حديثًا في هذه السنة [1].

ويؤكد الحداثيون الغربيون على أنَّ أخص مفاهيم الحداثة هو الثورة على كل ما هو قديم وثابت، والنفور من كل ما هو سائد من أمور العقيدة والفكر والقيم واللغة والشؤون السياسية والأدبية والفنية؛ وهذا ما يؤكد على أنها ثورة على الواقع بكل ما فيه من ضوابط.

- يقول الشاعر الفرنسي "شارل بودلير" Charles Baudelaire: "ما أعنيه بالحداثة هو العابر والهارب والعرضي ونصف الفن الذي يكون نصفه الآخر أزليًا وثابتا"[2]؛ تأكيدا منه على ضرورة التعبير عن روح العصر، باستخلاص كل ما هو أزلي من أي شيء عابر. فالحداثة عنده مرتبطة بثنائية الحاضر والأزل.

- يقول الروائي الفرنسي فلوبير "Flaubert" عن الحداثة: " الحداثة هي التعصب للحاضر ضد الماضي"؛ بمعنى أنّ الوعي الحداثي ليس تشيعًا لسلطة ماضوية وحَنينًا إلى أصل تليد وحقبة ذهبية، بل هو تمجيد للحاضر وانفتاح على الآتي[3]؛ ما يبّن أن مفهوم الحداثة عنده مرتبط بالزمن والكتابة، ولعلّ القطيعة مع الماضي من أهم خصائص الحداثة في الأدب، لرغبة المُبدعين في كتابة كلّ ما هو جديد غير مألوف. وقد عبّر عن هذا المعنى بقوله: " إنَّ ما يثيرني لكونه جميلا، ما يروق لي أن أفعله، هو كتاب يدور حول لا شيء، كتاب خالٍ من الارتباطات الخارجية، متمسك بذاته من خلال القوة الداخلية لأسلوبه". ومن أهم أفكاره التي تؤسس للحداثة في الأدب، قوله: " ليس هناك مواضيع جميلة أو بذيئة إذا ابتعدنا عن قاعدة الفن الخالص، لأننا نستطيع بالإنشاء أن نغيّر نظرتنا إلى الأشياء".[4]

- يقول المفكر الغربي "جان بودريار": "ليست الحداثة مفهومًا سوسيولوجيًا أو مفهومًا سياسيًا أو مفهوما تاريخيًا يحصر المعنى، وإنّما هي صيغة مميزة للحضارة تُعارض صيغة التقليد"؛ أي أنها تعارض جميع الثقافات الأخرى السابقة أو التقليدية، وتتضمن معنى الإشارة إلى التطوّر والتبدّل في الذهنية.

---

[1]- ينظر: محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي، الحداثة في العالم العربي- بحث أعدّ لنيل درجة الدكتوراه-

[2]- خيرة حمر العين، جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، دط. دمشق: 1996، اتحاد الكتاب العرب، ص 31.

[3]- محمد الشيكر، هايدغر وسؤال الحداثة، دط. المغرب: 2006، أفريقيا الشرق، ص 12.

[4]- فيكتور برومبير، غوستاف فلوبير، تر: غالية شملي، ط1. لبنان: 1978، سلسلة أعلام الفكر العالمي المعاصر، ص 22.

– يعرّف الناقد الفرنسي "رولان بارت Roland Barthes" الحداثة بأنّها: " انفجار معرفي لم يتوصَّل الإنسان المعاصر إلى السَّيطرة عليه". ففي الحداثة تنفجر الطاقات الكامنة، وتتحرّر شهوات الإبداع في الثورة المعرفية، مولدة في سرعة مذهلة وكثافة مدهشة أفكارا جديدة، وأشكالا غير مألوفة، وتكوينات غريبة، وأقنعة عجيبة، فيقف بعض الناس منبهرًا بها ويقف بعضهم الآخر خائفا منها، هذا الطوفان المعرفي يولِّد خصوبة لا مثيل لها، ولكنه يغرق أيضًا[1]. ويعترف بأنّ الحداثة لا تقدّم لنا أعمَالا كاملة ومعصومة، ومع ذلك يجب علينا التمسك بها والدفاع عنها بقوله: " ينبغي علينا أن نتخذ موقفنا من الحداثة وندافع عنها في مجموعها راضين بما تنطوي عليه من نقائص لا يكون في استطاعتنا تقديرها بالضبط"[2].

كما يقرّ بأنّ قراءة أعمال كلّ من بروست وفلوبير، بلزاك وغيرهم دوما ما تحقّق له بعض اللّذة، غير أنه لا يستطيع إعادة كتابتهم في قوله:" فأنا أعلم أنني لا أستطيع إعادة كتاباتهم (وأنني لا أستطيع الكتابة على هذا النحو) ويكفي أن أعلم هذا كي أنفصل عن إنتاج هذه الآثار، هذا في الوقت التي يؤسس ابتعادهم عني حداثتي، أليست الحداثة هي أن نعرف ما ينبغي تجنّب العودة إليه؟ "[3]؛ كان الحداثة عنده هي كتابة ما لم يكتب،

– يقول شارل بيرمان: "معنى أن نكون مُحدَثين هو أن نجد أنفسنا في مناخ يَعِدُنا بالمغامرة والقوة والبهجة والنَّماء وتغيير أنفسنا والعالم، وفي الوقت نفسه يهدّدنا بتدمير كل ما لدينا، كل ما نعرفه، كل ما نحن عليه". وبهذا المعنى يمكن أن تأتي الحداثة لتجمع البشرية كلّها في وحدة، ولكن هذه الوحدة وحدة إشكالية؛ لأنها تضعنا في معترك من التفكّك الدائم والتّجدّد، من الصِّراع والتَّضاد، من الغموض والمعاناة.

– يقول فرانك كيرمود: "الحداثة لا تعيد صياغة الشكل، بل تأخذ الفن إلى ظلمات الفوضى واليأس"؛ وهذا يعني أنّ الحداثة لا تأخذ بيد الفن إلى مواطن الإبداع، وإنّما إلى التَّهلكة والتكلّف والغموض والضبابية والغربة والتفكك.

ب– <u>مفهوم الحداثة في العالم العربي:</u> من الصعب استظهار كل المفاهيم المتعلقة بالحداثة في العالم العربي لعدم تمكّن النّقاد العرب من تحديد تعريف دقيق له، لذلك سنكتفي باستظهار بعض التعاريف والمفاهيم التي قالها أعلامها ومفكروها فقط، ومنها:

– يقول يوسف الخال: "الحداثة في الشعر إبداع وخروج به على ما سلف، وهي لا ترتبط بزمن، وكل ما في الأمر أنَّ جديدًا ما طرأ على نظرتنا إلى الأشياء فانعكس في تعبير غير مألوف. والحداثة لا تكون باتباع أشكال

---

[1]– محمد مصطفى هدارة، محاضرة الحداثة والتراث. نقلا عن: عدنان علي رضا النحوي، الحداثة في منظور إيماني، ص 25–26.

[2]– رولان بارت، درس السيميولوجيا، تر: عبد السلام بن عبد العالي، ط3. المغرب: 1993، دار توبقال، ص 44.

[3]– رولان بارت، نفسه، ص 66.

تعبيرية شعرية معينة، بل باتخاذ موقف حديث تجاه الحياة ومنها تجاه القصيدة "[1]؛ ما يعني أنها نظرة للأشياء على غير ما سَلف ومخالفة كل ما هو قديم وثابت، كما أنها ليست أشكالا تعبيرية فقط، وإنّما هي نظرة أخرى تجاه الحياة.

ويؤكد في موضع آخر بأنّ الحداثة "لا تكون باتّباع أشكال تعبيرية شعرية معيّنة، بل باتخاذ موقف حديث تجاه الحياة ومنها تجاه القصيدة".

– يقول أدونيس (وهو أحد أعمدة الحداثة في الوطن العربي): "الحداثة هي موقف معرفي أدّى إلى تغيير نظام الحياة، وهذا الموقف المعرفي يقوم على أنّ الإنسان هو مركز العالم ومصدر القيم، وعلى أنّ المعرفة اكتشاف للمجهول الذي لا ينتهي، وعلى أن مصدر القيم ليس غيبيًا، وإنّما هو إنساني".

كما تعني عنده –كذلك–على أنّها " نشوء حركات ونظريات وأفكار جديدة، ومؤسسات وأنظمة جديدة تؤدي إلى زوال البُنى التقليدية القديمة في المجتمع وقيام بُنى جديدة"[2]؛ ما يعني أنّ الحداثة لا تتحقّق إلاّ عن طريق الثورة، وليس بالضرورة أن تستخدم هذه الثورة العنف المادي أو المعنوي، وإنّما المهم فيها هو أن تتمكّن من تحقيق التحوّل من الوضع القائم إلى وضع آخر أفضل مختلف عن الأوضاع التقليدية السابقة.

ويقرّر أنّ الحداثة معاناة ومغامرة واحتضان للمجهول، بقوله: " لا يكفي أن يتحدّث الشاعر عن ضرورة الثورة على التقليد، وإنّما عليه أن يتبنّى الحداثة. وليست الحداثة أن يكتب قصيدة ذات شكل مستحدث لم يعرفه الماضي، بل الحداثة موقف وعقلية. إنّها طريقة نظر وطريقة فهم، وهي وفوق ذلك وقبله ممارسة ومعاناة، إنّها قبول بكل مستلزمات الحداثة: الكشف والمغامرة، واحتضان المجهول"[3].

ويقول في موضع آخر: " لا يستطيع الشاعر أن يبني مفهوما شعريا جديدًا إلاّ إذا عانى في داخله انهيار المفاهيم السّابقة، ولا يستطيع أن يجدّد الحياة والفكر إذا لم يكن عاش التجدّد، فصفى من التقليدية وانفتحت في أعماقه الشقوق والمهاوي، التي تتردّد فيها نداءات الحياة الجديدة، فمن المستحيل الدخول في العالم الآخر الكامن من وراء العالم الذي نثور عليه، دون الهبوط في هاوية الفوضى والتصدّع والنفي"[4]؛ ما يؤكّد على أنّ الفكر الحداثي عقيدة فوضوية.

– يقول "كمال أبو ديب": " الحداثة انقطاع معرفي، ذلك أنّ مصادرها المعرفية لا تكمن في المصادر المعرفية للتراث، في كتب ابن خلدون الأربعة، أو في اللغة المؤسساتية، وفي الفكر الدّيني، وكون اللّه مركز الوجود، وكون السلطة السياسية مدار النشاط الفني، وكون الفن محاكاة للعالم الخارجي. الحداثة انقطاع؛ لأن مصادرها المعرفية هي

---

[1]– ينظر: يوسف الخال، الحداثة في الشعر، ص 84–85/ 16–17.

[2]– أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، ص321.

[3]– أدونيس: زمن الشعر، ط3. بيروت: 1983، دار العودة، ص 45.

[4]– أدونيس، نفسه، ص 54.

اللغة البكر، والفكر العلماني، وكون الإنسان مركز الوجود، وكون الشعب الخاضع للسلطة مدار النشاط الفني، وكون الداخل مصدر المعرفة اليقينية، إذا كان ثمة معرفة يقينية، وكون الفن خلقًا لواقع جديد"[1].

– يقول جابر عصفور: " تنبثق الحداثة من اللحظة التي تتمرّد فيها الأنا الفاعلة للوعي على طرائقها المعتادة في الإدراك، سواء أكان إدراك نفسها من حيث هي حضور مُتعيّن فاعل في الوجود، أو إدراك علاقتها بواقعها، من حيث هي حضور مستقل في الوجود"[2]؛ بمعنى أنّ لحظة الحداثة هي لحظة تمرّد الأنا المبدعة على طرائق الإدراك لتكشف عن ذاتها وعن الواقع المحيط بها.

– يقول عبد اللّه الغدامي: " الحداثة بمثابة الموقف الخاص أكثر ممّا هي تصوّر معرفي مشترك"[3]؛ ما يعني أنّ كل مفهوم للحداثة هو نتاج اجتهاد فردي ورؤية شخصية، لذلك تعدّدت مفاهيمها.

ويقول كذلك في موضع آخر: " الحداثة معادلة إبداعية بين الثابت والمتغيّر، أي بين الزماني والوقتي، فهي تسعى دوما إلى صقل الموروث؛ لتفرز الجوهري منه فترفعه إلى الزماني، بعد أن تزيح كل ما هو وقتي؛ لأنه متغيّر ومرحلي؛ وهو ضرورة ظرفية تزول بزوال ظرفها، وتصبح طورًا في نمو الموروث، لكنه لا يكبّل الموروث أو يقيّده"[4]؛ فهو يحاول أن يقدّم مفهومًا لها انطلاقا من الإبداع ومن ثنائية الثابت والمتحوّل من جهة، ومن جهة أخرى يعتمد على المعاصرة والتجديد لتحديد معناها، فيقول: " إنها صلة استكشاف أبدية في أغوار أبرز الحقائق الإنسانية، أقصد اللغة"[5].

– يقول "سامي سويدان": " تحوّل وخروج عن السّائد والمألوف، انعطاف وانحراف في اتّجاه لم يكن قد طرق بعد، تفرّع وامتداد نحو أفق كان حتى حينه مجهولاً، قد يبلغ هذا التفرّع مدى ويعرف ذلك الانحراف حدًا يبدو معهما العمل الحديث في تأسيسه لنموذج جديد ومعايير طارئة ابتداعًا من غير أصل"[6]؛ فهي تمرّد دائم على المألوف وسعي مستمر لتأسيس نموذج جديد غير معروف.

فمن خلال ما تقدّم من مفاهيم وتعاريف للحداثة، يمكن لنا القول بأنها ذلك الوعي الجديد بمتغيرات الحياة والمستجدّات الحضارية والانسلاخ من أغلال الماضي، والانعتاق من هيمنة الأسلاف، واستجابة حضارية للقفز على الثوابت، وتأكيد مبدأ استقلالية العقل الإنساني تجاه التجارب الفنية السابقة، فنجدها سمة غالبة عند كثير من الأمم

---

[1]– ينظر: محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي، الحداثة في العالم العربي– بحث أعدّ لنيل درجة الدكتوراه– ص 142 وما بعدها.

[2]– جابر عصفور، رؤى العالم عن تأسيس الحداثة العربية في الشعر، ص 383.

[3]– عبد اللّه الغدامي، تشريح النص– مقاربة تشريحية لنصوص شعرية معاصرة–، ط2. المغرب: 2006، المركز الثقافي العربي، ص 10.

[4]– عبد اللّه الغدامي، نفسه، ص 13.

[5]– نفسه، ص 15.

[6]– سامي سويدان، جسور الحداثة المعلقة، ط1. بيروت: 1997، دار الآداب، ص10.

وإن اختلفت في منطلقاتها ومرتكزاتها الأساسية، إلاّ أنّ أهدافها تكاد تكون واحدة. فالحداثة هي الثورة على كلّ ما هو قديم وثابت، والثورة على الواقع بكل ما فيه من ضوابط.

وفي الأخير ننوّه إلى أنَّ الحداثة لم تقتصر على الشعر فحسب، بل شملت القصة والرواية والمسرح، غير أنّ الحداثة في الشعر كانت الأبرز والأكثر جدّة.

3- اختلاط الحداثة العربية بمفهومي المعاصرة والتجديد:

أ- **المعاصرة:** يختلط مفهوم "الحداثة" بمفهوم "المعاصرة"، فالعصر لغة، مرحلة زمنية منسوبة إلى حكم رجل، أو دولة (العصر الجاهلي،...) وتعني المعاصرة التزامن. والتزامن أحد شروط الحداثة، ولكنها لا تتطابق مع الحداثة.

ذهب "عز الدين إسماعيل" إلى أنّ المعاصرة هي الارتباط بأحداث العصر وقضاياه، وأنَّ شعرنا عصري؛ لأنّه يعبّر عن عصرنا بكل أبعاده الحضارية.

وبهذا، فالمعاصرة تعني الصدق في تعبير الشاعر عن عصره وزمانه وذوقه واستفادته من معطيات الواقع، ولذلك تكون المعاصرة أشمل من الحداثة؛ لأنّها لا تقتصر على زمن دون آخر، في حين تقتصر الحداثة على زمن معين. والشعر الحديث معاصر بالضرورة، ولكن ليس الشعر المعاصر كلّه حداثيًا.

ب- **التجديد:** يختلط أيضا مفهوم الحداثة بمفهوم التجديد، فالتجديد إصلاح وتحسين، وجدّد الشيء، جعله جديدا، وهو يقدّم إضافة إبداعية، ولكنّه ينطلق من صورة مألوفة، فهو اصطلاحي.

والتجديد يكون جزئيا وليس شاملا، فالرصافي مثلا مجدّدا في عصره، مطران كذلك مجدد في عصره،.... أمّا الحداثة فهي حركة تجديدية شاملة، والمُحدث لغة، هو ما لم يكن معروفا وهو نقيض القديم. وقد يكون التجديد في بعض من صوره تمهيدًا للحداثة، ولكنه ليس الحداثة نفسها.

التجدّد هو أحد شروط الحداثة، فهو مرتبط بالبيئة، ولكن الحداثة عالمية، والتجديد له ملامح قديمة، مثل: المرأة في النص الكلاسيكي، الحب في النص الرومانسي.

وحاول عبد اللّه الغامدي أن يميّز بين الحداثة عن المعاصرة والتجديد في قوله: "أنّ ما هو جديد اليوم سيكون قديمًا في الغد، والقديم اليوم، كان جديدًا في زمنه، لكنّ الحداثة لا تَقْدُم. وكل ما هو حداثة اليوم أو أمس لن يصبح في الغد "لا حداثة" ونقيض الحداثة ليس القِدَم، ولكنه السكونية اللاوعية. حينئذ الحداثة هي الفعل الواعي أخذًا بالجوهري الثابت وتبديلا للمتغيّر المتحوّل"[1].

4- جذور الحداثة عند الغرب: لقد اختلف الباحثون الذين أرَّخوا للحداثة الغربية وحول بداياتها كثيرًا، فهناك من يرجعها إلى عصر النهضة وحركات الإصلاح الديني والثورة الصناعية، وانفصال الدين عن الفن. وهناك من

[1]- عبد اللّه الغدامي، تشريح النص، المرجع السابق، ص 15.

يرجع بداياتها الأولى إلى عهد الثورة الصناعية الثانية، وانطلاق أول قمر صناعي للفضاء والثورة الروسية سنة 1917.

فالحداثة لم تنشأ من فراغ، بل هي امتداد لإفرازات المذاهب والتيارات الفكرية والاتجاهات الأدبية والأيديولوجية المتعاقبة التي عاشتها أوروبا في القرون الماضية، أين قطعت فيها صلتها بالدّين والكنيسة وتمرّدت عليه، وقد ظهر ذلك جليًّا منذ ما عُرِف بعصر النهضة في القرن الخامس عشر الميلادي عندما انسلخ المجتمع الغربي عن الكنيسة، فقد جاءت نتيجة التحوّل من الإقطاع إلى البرجوازية، فالرأسمالية والاشتراكية، ومن التقدّم الصناعي إلى التقدم التقاني.

وهناك من يرجع ظهورها " لامتداد التيه الذي دخلته أروبا منذ العصور الوثنية عند اليونان والرومان، امتدادا إلى عصر الظلمات، ثمّ امتدادا إلى العصور اللاحقة، بكل أمواج المذاهب والفلسفات المتناقضة المتصارعة، وكلّ مذهب كان يحمل في ذاته عناصر موته. فلم يبقَ شيء في حياة الإنسان الغربيّ لم يعشقه ثم يكفُر به، فقد عشق التقليد للوثنية ثم نقم عليها وكفر بها، وعشق المسيحية ثم كفر بها وبالكنيسة وبكل مفاسدها وظلمها وظلامها، وعشق الطبيعة ثمّ هجرها، وعشق الواقع ففرَّ منه مذعورًا، ودخل التيه والظلام، وكفر باللّه كفرا صريحًا، وحمل المادية التاريخية والجدلية وبدأ يكفر بها، وقال إنّ الفن للفن ثمّ كفر بذلك، ودعا إلى الحرية والإخاء والمساواة دعوة طلاء وغشاوة، حتى جاءت الوجودية فأزالت الطلاء والغشاوة، وجعلت الحرية فوضى، والالتزام تفلتًا، والإيمان بأي شيء كفرًا؛ فلم يعد في حياة الغربي إلاَّ أنْ تنفجر هذه المذاهب انفجارًا رهيبًا يحطّم كلّ قيمة، لتعلن يأس الإنسان الغربيّ وفشله في أن يجد أمنًا وأمانًا"[1].

تقول خالدة سعيد (زوجة أدونيس): "تمثلت الحداثة الأوروبية منذ بدايتها في الصراع مع المؤسسات الدينية وقوانين الكنيسة والتقاليد الاجتماعية والمفهومات الموروثة، ثمّ في مرحلة متأخرة مع التقاليد الأدبية لصالح مبادئ الحرية والفردية والابتكار والعفوية"، ما يبيّن أنّ الحداثة تقدّس الجديد المخالف للسائد والثوابت القديمة.

فالحداثة كانت تمثّل كلّ هذا الانفجار الرّهيب، الانفجار اليائس، انفجار الإنسان الذي لم يعرف الأمن في ذاته آلاف السنين، فقد جرّب كل العلم والمال والطبيعة وغير ذلك فما أفادته بشيء، فكفر بكلّ شيء وعبّر عن كفره ذلك باسم الحداثة.

ورغم الاختلاف الكثير بين الذين نظَّروا حول البدايات الأولى للحداثة الغربية، إلاّ أنَّ بعضهم يتَّفق على أنَّ ارهاصاتها المبكرة بدأت منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي على يدي "شارل بودلير" الفرنسي صاحب ديوان

[1]– عدنان علي رضا النحوي، الحداثة في منظور إيماني، ط3. الرياض: 1989، دار النحوي للنشر والتوزيع، ص 25.

"أزهار الشَّر"[1]. ويعدّ "بودلير" مؤسس تيار الحداثة من الناحية الفنية الأدبية، فعلى يديه نمت وترعرعت بذرة الحداثة، فهو الذي نادى بالغموض في الأحاسيس والمشاعر والفكر والأخلاق كما قام المذهب الرمزي؛ ما يؤكّد أنّ الحداثة كمذهب أدبي تجديدي قامت في أساسها الأوّل على الغموض وتغيير اللغة، والتخلّص من الموروث بكلّ أشكاله وأجناسه، وتجاوزهم للسائد والنّمطي.

ثمّ أعقب بودلير" رائد آخر من رواد الحداثة هو "رامبو Rimbaud" الذي يرى أنه "من الضروري أن نكون محدثين بصورة مطلقة"[2]، كما دعا إلى أن يكون الشعر رؤية ما لا يُرى، وسماع ما لا يُسمع، وعلى الشاعر التمرّد على التراث والماضي، فالحداثة في مفهومها الإجمالي عنده وعند بودلير" تمثّل أساسًا عملية تدمير للأشكال الثابتة التي تحول دون تطوّر الفن والمشاعر والأفكار والعادات..."[3].

وتعاقب ركب الحداثيين في الغرب، وسلكوا نفس الطريق الذي بدأه "بودلير" و"رامبو" وساروا على نهجهما، ومن هؤلاء "مالارمييه Mallarmé" الشاعر الفرنسي الذي امتاز شعره بالغموض الذي يعتبر من أهم عناصر شعر الحداثة، كما نجد كذلك الشاعر الأمريكي "إدغار آلان بو Edgar Allan Poe" الذي يعدُّ من مؤسسي الشعر الحديث، إلى جانب الشاعر البريطاني " توماس إليوت Thomas Eliot " الذي يعدّ بدوره من أهم شعراء الحداثة في الغرب، فقد دعا إلى عدم التقيد بالوزن والقافية وإلى توظيف الأسطورة في الشعر؛ لأنها الوحيدة –حسبه– القادرة على حمل تناقضات هذا العالم.

فهكذا غدت الحداثة الغربية سلسلة متصلة الحلقات يتناقلها اللاحقون عن السّابقين، وهي إلى جانب ذلك متّصلة اتصالا شديدًا بما سبقها من وجودية ورمزية وسريالية ومادية جدلية، ومادية تاريخية، وواقعية اشتراكية، وبرناسية، ورومانسية، وبكثير من الأفكار والمبادئ والتيارات التي كانت قاعدة لها، ومنطلقًا فكريًا مَدَّها بكلِّ ما حملته تلك المذاهب من فكر وأيديولوجيات، وتمرّد على كل ما هو سائد وموروث، وتجاوزت حدود الأدب واللغة لتطال الدّين والأخلاق والقيم.

5- <u>الحداثة عند العرب:</u> يزعم بعض الباحثين أنَّ الحداثة العربية تابعة للحداثة الغربية جملة وتفصيلا، فمعناها واحد ومفهومها متطابق، فهي مستورد من المستوردات الغربية، لذا فإنّ مصدرها الأول هو الحضارة الغربية، وما تنطوي عليه من مِلَلٍ وثنيَةٍ ومذاهب فلسفية، واتجاهات فكرية، ومناهج وضعية، "فهي في الحقيقة غربية الأصل والنشأة والتوجّه والأهداف، ولكنها مترجمة إلى العربية ومنقولة إليها بأحرف عربية الحرف، أجنبية الولاء"[4]؛ وهذا ما

---

[1]– ينظر: عبد الحميد جيدة، الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر.

[2]– خيرة حمر العين، جدل الحداثة في نقد الشعر العربي، دط. دمشق: 1996، اتحاد الكتاب العرب، ص 34.

[3]– محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة –نموذج هابرماس– ط2. المغرب: 1998، أفريقيا الشرق، ص110.

[4]– سعيد بن ناصر الغامدي، الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، ط1. جدة: 2003، دار الأندلس الخضراء، ص 78.

جعل بعض الباحثين يرفض التقليد الأعمى للحداثة الغربية بقوله: " نحن فعلا بحاجة إلى حداثة حقيقية تهزّ الجمود وتدمّر التخلّف وتحقّق الاستنارة، لكنها يجب أن تكون حداثتنا نحن، وليست نسخة شائهة من الحداثة الغربية"[1].

والكثير من الحداثيين العرب يعترف صراحة بأنّ الحداثة في العالم العربيّ غربية المنشأ والمصدر، في الشكل والمضمون، لا سيما ما جاء منها عن طريق الأدب والشّعر، فإنّه أكثر استقبالا من غيره. والمتتبّع لمَا يكتبه ويقوله الحداثيون العرب، وما يدعُون إليه، يتبيّن له بكل جلاء أنّ جذور حداثتهم غربية في أصولها، ومناهجها، ومذاهبها غريبة على شرع اللّه [2].

في حين يرى "أدونيس" أنّ تاريخ الحداثة العربية في الشّعر يعود للقرن الثامن للميلاد؛ أين بدأت تظهر بوادر اتجاه شعري جديد تمثّل في بشار بن برد، أبي نواس، أبي تمام، الشريف الراضي وأخرون[3]. وبين أوائل القرن التاسع عشر وأواسط الأربعينات من القرن العشرين استُعيدت مسألة الحداثة، واستؤنفت مناقشة الإشكالات والقضايا التي تثيرها[4]. وامتدّت بعدها إلى طه حسين وجماعة الديوان، وأبولو والمهجر.

ويعدّ بشار بن برد أوّل المحدثين بالمعنى الإبداعي، ممن خرجوا على ما سمي بعمود الشعر العربي، حتّى قيل عنه بأنه أستاذ المحدثين، من بحره اغترفوا، وأثره اقتفوا؛ لأنّه أعطى للغة أبعادا مجازية أو تصويرية غير مألوفة، كما أنّه رفض التقاليد الاجتماعية وبعض الأفكار الدينية السائدة، فسخِر منها وشكّك فيها من جهة، وبشَّر من جهة ثانية باللّذة، أو ما يمكن أن نسميه ثقافة الجسد. وامتدّ هذا التحوّل في الحساسية الشعرية في شعر أبي نواس وشعر أبي تمام، فقد فرضت تجربتهما الفنية طرحًا جديدا لمسألة الشعر القديم والعلاقة به، وطرحا جديدا لمعنى الشعر المُحدث وكيفية كتابته. وهكذا لم يعد الشعر عند أبي نواس وأبي تمام تقليدًا لنموذج تراثي، ولم يعد كذلك تقليدًا للواقع، وإنما صار إبداعا لا يتمّ إلاّ بدءا من استبعاد التقليد والواقع معًا[5].

وفي العصر الحديث كان لتأثُّر الشعراء العرب بنظرائهم الغرب انعكاس كبير على شعرهم، وتجلّى ذلك مثلا في ظهور الشعر المرسل عند "عبد الرحمن شكري"، والتجديد في اللغة عند "جبران خليل جبران" وغيرهما، ثم جاء شعر التفعيلة على يد "نازك الملائكة" و "بدر شاكر السّياب" ليُدشّن بداية التحرّر من الشكل العمودي، وأخيرا ظهور قصيدة النثر على يد "يوسف الخال" و"أدونيس" وغيرهما. وكان "العقاد" من أبرز الدّاعين إلى التّجديد في الشعر، "فهو الذي قاد حملات هجوم حادة وعنيفة ضد التقليديين ساعيًا إلى تهديم أبرز رموزهم في العقدين الأولين للقرن العشرين معتبرا أنّ أحمد شوقي قد أضحى صنَمًا ينبغي تحطيمه والتخلّص منه"[6].

---

[1]–عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة– من البنيوية إلى التفكيك–دط. الكويت: 1998، سلسلة عالم المعرفة، ص 9.

[2]– ينظر: محمد بن عبد العزيز بن أحمد العلي، الحداثة في العالم العربي– بحث أعدّ لنيل درجة الدكتوراه– ص 186 وما بعدها.

[3]– ينظر: أدونيس، زمن الشعر، المرجع السابق.

[4]– أدونيس، الشعرية العربية، ط2. بيروت: 1989، دار الأدب، ص 82.

[5]– ينظر: أدونيس، الثابت والمتحوّل، ج4، ط1، 1978بيروت: دار العودة، ص 11–17.

[6]– سامي سويدان، جسور الحداثة المعلقة، المرجع السابق، ص 10.

أمّا في ميدان النقد فيجمع أغلب المهتمين بشأن التجديد فيه أنّ الكتابات النقدية لجماعة الديوان وكتابات "طه حسين" خاصة بعد تأثّره بالمناهج الغربية كانت "بمثابة الإرهاص للحداثة النقدية المعاصرة، خصوصا ما ترتّب عن دعاوى طه حسين في كتابه "في العصر الجاهلي" من ضجّة وخصومات نقدية بين أنصار القديم وأصحاب المشروع التنويري (العقلي)"[1].

[1]– ينظر: عبد الغني بارة، إشكالية تأصيل الحداثة في الخطاب النقدي العربي المعاصر، ص 145.